

زراعة الكروم في تونس: قطاع استعماري بامتياز

1920-1881

ناجي كشيدة¹

¹باحث في التاريخ المعاصر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية- سوسة

تاريخ الاستلام: 2021/11/29 تاريخ القبول: 2021/12/01 تاريخ النشر: 2022/03/21

تلخيص

سنحاول خلال هذا المقال التطرق لظروف نشأة قطاع الكروم في تونس خلال الفترة الاستعمارية وقد تابعنا من خلال هذا العمل مراحل تطوّر ونمو هذا القطاع الاستعماري، فمن مرحلة الانكماش الى التطور والتمدد الجغرافي بفضل الاجراءات والتشجيع الرسمي أصبح قطاع الكروم قطاعا حيويا وتجاريا جذب إليه أعداد متزايدة من المستوطنين وعلى رأسهم الفرنسيين. خدم هذا القطاع الفلاحي المشروع الاستيطاني وأسهم في تنمية الصادرات الفرنسية حتى في فترة الحرب العالمية الأولى التي تميزت بصعوبة التسويق والتصدير.

Résumé:

Nous tenterons d'aborder dans cet article l'émergence de la viticulture en Tunisie sous l'occupation française, d'un secteur concentré et trop limité géographiquement dans le nord du pays vers un secteur vif, commercial et étendu dans d'autres régions. Ce développement est réalisé grâce aux mesures prises par l'administration coloniale, qui ont encouragé les colons européens et surtout les français. La viticulture a joué un rôle important dans l'évolution des exportations françaises malgré la crise durant de la grande guerre.

المؤلف المرسل: ناجي كشيدة

تمكّنت الجمهورية الثالثة من توسيع رقعة هيمنتها ونفوذها سياسيا وعسكريًا على شمال إفريقيا باحتلالها لتونس سنة 1881 وفتح مزيد من الأفاق الجغرافية أمام المستوطنين الرّاعيين في الاستحواذ على ما أمكن من الأراضي الصّالحة للاستغلال والاستيطان، في ظل تعدّد الأزمات الفلاحية بالمتروبول (اجتياح داء الفلوكسيرا وغير ذلك من الأزمات) وقد توجّه أوائل هؤلاء لممارسة غراسات الكروم التي ستعرف التوسّع وستزحف باتجاه مناطق كانت بالأمس القريب على ملك القبائل والعروش للرّعي والإنتاج الغذائي المعاشي كما بالجزائر أولى المستعمرات الفرنسية بشمال إفريقيا.

سنحاول في هذه الورقات تسليط الضوء على ملابسات تكوّن قطاع الكروم وبروزه في تونس كمستعمرة فلاحية منذ 1881 في فترة عرفت فيها الفلاحة الإستعمارية تطورا هاما جغرافيًا ونوعيًا كما سنذكر في هذه النقطة كذلك أهم "مستوطني الكروم" بتونس الذين أخذوا على عاتقهم مهمّة انشاء أولى الغراسات هيمنوا على هذا المشهد الزراعي، وسنمرّ في مرحلة ثانية إلى تحليل مراحل توسّعه جغرافيا نحو عديد المناطق والجهات الفلاحية بعد أن كان منحصرًا في المناطق الشمالية الخصبة ومتماشيا في آن الوقت مع ملامح المشهد الاستيطاني بالبلاد الآخذ بالتشكّل. كما سنركّز على حجم مساهمة هذا القطاع الفلاحي الإستعماري في التجارة الخارجية كقطاع موجه للتصدير من خلال تبيان الكميات المصدرة للمتروبول وغيرها من الأسواق الأوروبية في ظرفية الحرب الكبرى.

1- الكروم في تونس غراسة منكمشة جغرافيًا:

لم يجد الفرنسيون "بإيالة" تونس مساحات هامة من الكروم بل مساحات محدودة بالشمال الخصب المطير وقد اقتصر الاستهلاك المحلي أو الأهلي على ثمار الكروم أو العنب المجفّف وذلك ما كان سائدا في الدول العربية والإسلامية. وقد

زراعة الكروم في تونس: قطاع استعماري بامتياز

1920-1881

فسّر الفرنسيون ذلك بتحريم القرآن لاستهلاك الخمر لكن لم تتم الإشارة إلى غياب التقنيات الضرورية للقيام بعمليات التخمير والحفظ كما لم تبرز بالبلاط التونسية قبل تلك الفترة النية لتصدير الكروم ومنتجاتها التي بقيت اختصاصا غربيا بامتياز سيأخذ طابعا استعماريّا بعد توجّه أوائل المستوطنين المتوافدين على تونس إلى هذا القطاع الفلاحي الواعد الذي خصّصت له مساحات هامة من الأراضي المستحوذ عليها وقد تركّزت أغلبها بالمناطق الخصبة والشمالية لتونس غداة الاحتلال كما سنوضّح ذلك في الجدول التالي:

أهمّ ضيعات الكروم بتونس إبان الاحتلال¹

المستوطن/الشركة العقارية	مساحة الكروم بالهكتار
جيرى و شركائه	153 هكتار بواي الزرقاء 20 هك ببرج توم
الشركة الفرنكو-إفريقية	300 هك بالنيفضة 180 هك بسيدي ثابت
المستوطن بول بوتان	445 هك ببرج السدرية
موريس كيرتي	221 هك بمرناف
بول لوروا بوليه و بيكو و شركائهما	313 هك بالشويشي
سافنيون	171 هك ببئر القصعة
إمبار	161 هك ببئر شانا
ترأس	140 هك بمرناف
فاير	140 هك بسوق الخميس
قستون	121 هك بخنفة الحجّاج
ديسباين	110 هك هنشير حسان باي

¹- Faucon (Narcisse), *La Tunisie avant et après la colonisation française: Histoire et colonisation*. T2: colonisation, Augustin Challamel, éditeur. Paris..., p 21.

ناحي كشيده

دي لافريني	100 هك بشواط
بيلتر	100 هك بقصر طير

استفاد المستوطنون الفرنسيون من السياسة الاستيطانية المتبعة بتونس والقائمة على تشجيع الاستيطان الحرّ والفردى وقد تركّز الاستيطان وغراسات الكروم خلال السنوات الأولى للاحتلال بالمناطق الشّمالية حول العاصمة وسهول مرناث (جنوب العاصمة) والمراقبة المدنية بقرمبالية. تميّزت هذه الفترة كذلك بهيمنة المستوطنين الفرنسيين على هذه النوعيّة من الغراسات ومثّلوا النّواة الأولى للملاك العقّارين بالمستعمرة ويعتبر المستوطنان جيرى ولومار المبادران بغراسة الكروم بوادي الزّرقاء² وقد استفادا من المناصب الإدارية التي حظيا بها صلب شركة عتّابة- فالمة اضافة لارتباط الرجلين بالأوساط الإستعمارية من إداريين وعسكريّين للاستيلاء على الأراضي وتحويل الاهتمام من قطاع الأشغال العمومية إلى الميدان الفلاحي فاتحين الطريق أمام أعداد هامة من المستوطنين. تميّزت ضيعات المستوطنين-مزارعي الكروم بامتدادها الهام خلال العشرية الأولى للاحتلال وقد برز من بين هؤلاء الفرنسيين خصوصا وستناول مثال ضيعة بول بوتان.

مثال ضيعة المستوطن بول بوتان ببرج السّدرية:

استقرّ المستوطن بول بوتان (Paul Potin) بمنطقة برج السّدرية قرب حمام الأنف (جنوب العاصمة) بالضيعة المعروفة ببوتانفيل (Potinville) حيث خصّص 447 هكتارا لغراسة الكروم التي انطلق في انجازها منذ 1885 بتخصيص ثلاثة هكتارات فقط³. تمكّن من إضافة 104 هكتارا في السّنة الموالية كما نجح سنة 1887 في إنجاز مائة هكتارا جديدة قبل أن يضيف إليها 210

²-Savignon (H), *Rapport sur la viticulture en Tunisie*. Imprimerie Ch. Maréchal et J. Montorier. Paris 1889, p 12.

³-Omnia (Laboré), *Une visite au domaine de Potinville: Etude agricole et industrielle*. Bardinet, Imprimerie-Editeur. Paris 1914, p 10.

1920-1881

هكتار سنة 1888⁴ واصل المستوطن بوتان توسعة المساحات المخصصة للكروم

على نسق حثيث وذلك على النحو التالي:

- 100 هكتارا أخرى سنة 1889⁵.

- 20 هكتارا سنة 1890.

- 12 هكتارا سنة 1891.

يعتبر هذا المستوطن مثالا عن المستوطنين المختصين في غراسة الكروم "الفرنسية" باعتماده على مشاتل ونوعيات فرنسية في المقام الأول حيث غطت الكروم من مشاتل الكارنيان (Carignan) مساحات تجاوزت 153 هكتارا⁶ تلتها نوعية المورفادر (Mourvèdre) على مساحة 117 هكتارا إلى جانب مشاتل أخرى أقل امتدادا بضيعته.

مثّلت العشريّة الأولى للاحتلال مرحلة التأسيس للكروم الأوروبية بتونس و قد استفاد هذا القطاع، إلى جانب الدّعم الحكومي الهام، من قدوم بعض المستوطنين الفرنسيين من الجزائر الذين وظّفوا خبرتهم وحاولوا الاستفادة من الفرص التي منحها إياهم الاستيطان. نذكر على سبيل الذكر المستوطن موريس كريتي (Maurice Crété) القادم سنة 1882 من إقليم وهران بالغرب الجزائري إثر مغادرته للجيش⁷ وكذلك المستوطن سافنيون⁸ العمدة السّابق لمدينة الجزائر المتحصّل على مساحات هامة ببئر القصعة قرب العاصمة إلى جانب آخرين. أحصي كذلك وجود 60 مستوطنا يملكون أكثر من ألفي هكتارا من الكروم سنة

⁴ -Ibid. p10.

⁵ - Bulletin du Syndicat agricole des colons Français en Tunisie, 1^{ère} année n°2, p 5.

⁶ - Omnia (Laboré), *Une visite...*, Op.cit., p 12.

⁷ -Crété (Marguerite), *Souvenirs de Tunisie 1886-1914*, Archives privées, p5.

⁸ -Savignan (H), *Rapport...*, Op.cit. p 34

ناجي كشيدة

1886⁹ ويبدو أنّ هذه التجربة الاستيطانية قد استفادت من التجربة الجزائرية السابقة في مجال الغرسة واحتكار الأراضي الملائمة للغرسة إضافة إلى تفادي المستوطنين لعدد الأخطاء التي المرتكبة سابقا بالجزائر وخصوصا مقاومة داء الفلوكسيرا الذي اجتاح مزارع الكروم هناك وأهلك المحاصيل ما تسبّب في انهيار وإفلاس العديد منهم¹⁰. كما وقّرت تونس ظروفًا ملائمة لنجاح مثل هذه الغراسات كضعف تأثير الرياح الصحراوية الجافة كما أشار لذلك المفوض الوزاري قاستين (Gastin)¹¹.

تميّزت مزارع الكروم بتونس وإلى حدود العشرية الأولى من الاحتلال بهيمنة وامتداد الضيعات الكبرى مقابل ضعف تمثيل صغار المستوطنين وذلك كنتيجة مباشرة للسياسة الاستعمارية التي سهّلت قدوم كبار المستوطنين واستفادتهم من السياسة الإستعمارية المعروفة بسياسة الإستيطان الحر التي طبّقت طوال العشرية الأولى للاحتلال الفرنسي هذا إلى جانب إلغاء سياسة الامتيازات العقارية أو منح الأراضي بالمجان للمستوطنين كما طبّق بالجزائر منذ السنوات الأولى لإنزال سيدي فرج. اقتصر نتيجة لذلك الحضور على كبار المستوطنين من ذوي الإمكانات المادية الهامة وكذلك المتحصلين على ملكيات عقارية شاسعة. سمحت كل هذه الظروف مجتمعة ببروز فئة من كبار المستوطنين الذين كانت غراسات الكروم اختصاصهم الأوّل ويمكن وصفهم بأوائل مزارعي هذا النشاط الفلاحي بتونس كما سنوضّح ذلك في الجدول الموالي:

⁹ -Beaulieu Paul (Leroy), *L'Algérie et la Tunisie*. Librairie Guillaumin et Cie. Paris. 1887, p 339.

¹⁰ - Ibid

¹¹ - Isnard (H), *La Vigne en Algérie, Etude Géographique*, Tome I. Ophrys-Gap, pp 195-196.

زراعة الكروم في تونس: قطاع استعماري بامتياز

1920-1881

أهم مستوطني الكروم بتونس¹²

المراقبة المدنية بقرمبالية		
المستوطن أو الشركة	المنطقة الريفية/ الضيعة	المساحة المخصصة كروما بالهكتار
فستون	خنقة الحجاج	116
توتي (المقدم)	فندق الجديد	90
المستوطنة جيلي	خنقة الحجاج	75
جول لكلاز (جنرال)	خنقة الحجاج	75
دي مونتره	ضيعة ميستراتيا	75
ابراهيم سماعة	بوعرقوب	70
إميل لنسون	خنقة الحجاج	200
لورانس وميل	المرايسة	58.15
لوران	المرايسة	67
المراقبة المدنية بسوسة		
الشركة الفرنكو-إفريقية	النفیضة	300
دي لوش	قصور الساف	25
منطقة مرنق (جنوب العاصمة)		
تراس (الأب والابن)	أحمد زايد	100
شارمتان	أوشارمات	60
موريه بونسان	مونتيستيت	80
سافينيون	بئر القصعة	150
ركليس وقينار	ماركاي	91

¹² - أرشيف وزارة الشؤون الخارجية تكتب لاحقاً (أ. و. ش. خ). سلسلة (س) تونس 1885-1916 بكرة رقم: 250. ملف (م) 1. وثيقة (و): 132 وما يليها: قائمة إسمية بالمستوطنين المالكين لـ 20 هكتار من الكروم على الأقل سنة 1901.

-Savignon (H), *Rapport sur la viticulture...*, Op. cit

-Turquan (Victor) et autres, G. Carré et C. Naud, Editeurs. Paris 1897, p 261

ناحي كشيدة

275	نبش الذيب	موريس كريتي
	الدويمسي	
118	هنشير حسان باي	دي سباين
448	بوتان فيل	بول بوتان
90	مقرين	دي لا روش كانتان
90	مقرين	بونت و برولمان
97	مرناق	المستوطنة شميدت
65	مرناق	دي فرنسوي وشركائه
97	مرناق	بول شارتمان
منطقة زغوان		
64	سانت ماري دي زيت	الأب بوزار
200	زغوان	فريديريك رمبار
المراقبة المدنية بسوق الأربعاء		
134	سوق الخميس	فأبر
100	سوق الخميس	دي مارتراي
60	سوق الخميس	فييري
المراقبة المدنية بباجة		
28	المنشار	جول سوران
110	وادي الزرقاء	الشركة العقارية

ملحق مجاز الباب		
125 هك	قصر طير	جون بيلتر
112 هك	شسار تقاحة	ديمونليودولد
23 هك	قيلاط	رفايرون دومينيك
المراقبة المدنية بصفاقس		
50 هك	هنشير الحاجب	مولار أدريان

زراعة الكروم في تونس: قطاع استعماري بامتياز

1920-1881

جول أفوكاتو	صفاقس	50 هـك
المراقبة المدنية بتونس		
بروفست	المغيرة	110 هـك
راينيه	السيجومي	97 هـك
الأخوة باتي	بيرين	36 هـك
المراقبة المدنية ببزرت		
قرامون	الهيود	70 هـك
ريكله وشركائه	أوتاتا	41 هـك
شركة خفية	سيدي بوحديد	32 هـك
منطقة منوبة		
الأخوة ليكاري	رأس الطابية	111 هـك
الشركة الفرنكو-إفريقية	سيدي ثابت	163 هـك
سوران وشركائه	منوبة	100 هـك
جون تراس	منوبة	62 هـك
ريشاروود	رأس الطابية	60 هـك
أويري وكواني	رأس طابية	60 هـك
منطقة الجديدة		
الشركة العقارية	الشويقي	353 هـك
المستوطنة لا قريني	شواط	116 هـك
سلفادور كفالبار	بح العامري	50 هـك

استحوذت غراسات الكروم ، وكما جاء بالجدول، على اهتمامات المستوطنين بمعظم المراقبات المدنية التونسية وكانت الإختصاص الفلاحي الأول لمستوطني بعض الجهات خاصة قرب مدينة تونس من الجهتين الغربية والجنوبية وحول قرمبالية وبوعرقوب وغيرها نظرا لملائمة التربة والعوامل المناخية، كما كانت

ناحي كشيدة

هذه المناطق أولى المحطات التي حلّ بها المستوطنون وذلك لقرّبها من العاصمة التي يرتادونها نظرا لثقلها الإداري وهيمنة المدينة على الأرياف في وقت لم تتشكّل فيه النقابات الفلاحية والتعاونيات بالمراكز الاستيطانية التي سهّلت العمل الفلاحي بالأرياف فيما بعد ومنحت المستوطن بعض الهامش من الحرية في علاقته بالمراكز الحضرية. ينبغي علينا أن لا نهمل دور الجانب الأمني الذي جعل من التوغل بالدواخل والتركز بالأرياف مغامرة قد تكلف المستوطنين حياتهم خاصة وأن عملية استمالة العنصر الأهلي لازالت في بداياتها المتعّرة.

تجدر بنا الإشارة كذلك إلى هيمنة شبه مُطلقة للمستوطنين الفرنسيين على هذا الاختصاص الاستعماري بتونس وذلك على خلاف ما حصل بالجزائر أين برز بعض المستوطنين من ذوي الأصول الأوروبية المتوسطة الذين تحصلوا على أهم المساحات وأكبرها مثل: المستوطن المالطي الأصل والفرنسي الجنسية شارل ديبونو (Charles Debono) بمركز بوفاريك قرب مدينة الجزائر والإسباني ليون باستيد (Léon Bastide) بمنطقة سيدي بلعبّاس وغيرهما.

تميّزت المساحات المخصصة لغراسة الكروم بأهميتها بعدد المناطق بتونس ومثلت العمود الفقري للقطاع الفلاحي الإستيطاني لكنها لم تعرف نفس الأهمية الجغرافية التي عرفتها ملكيات بعض المستوطنين بالجزائر ويعود ذلك أساسا إلى الفارق الواضح في الأراضي التي تحصّل عليها المستوطنون هناك إضافة إلى استفادة العديد منهم من السياسات التي طبّقت بالمستعمرة الأولى لفرنسا بمنطقة شمال إفريقيا وخاصة نظام الإمتيازات التي أقبّل عليها الفرنسيون. كما مثّل الدعم المُقدّم من قبل البنوك وشركات القرض بالجزائر حافزا للعديد من المستوطنين لتوسيع غراساتهم واقتحام مغامرات جديدة.

اعتمدت الأقلام الاستعمارية على الإرث اللاتيني لتشجيع الاستيطان وتوسيع غراسات الكروم فقد تحدّث نارسيس فوكون (Narcisse Faucon) عن

فاعلية ارتفاع درجات الحرارة التي يوفرها المناخ بتونس والتربة ما يضيف حسب رأيه مذاقا أفضل للخمور وقد أشار في هذا السياق إلى تبني الكاتب اللاتيني أبيانوس (Plin) لهذه الفكرة¹³. كما لم تغفل السلطات الفرنسية في إطار توظيف الأيديولوجيا التوسّعية عن التنصيص على قيمة المجهودات التي بذلها السّاسة والفلاحون الرومان بأرض قرطاج في ميدان التخمر وغراسة الكروم ما أعطى جودة عالية للخمور التي نالت إعجاب الأباطرة الرّومان¹⁴ وعلى رأسهم تيبار (Tibère) (14م-37م). حاول الفرنسيون كذلك إحياء الإرث المسيحي بتونس وبشمال إفريقيا أيضا وذلك للسّير على خطى القديس أغسطان والقديس سيبريان مقابل نفهم أو تجاهلهم للدور الذي قام به القرطاجي ماجون (Magon) في القطاع الفلاحي والذي كان من أبرز المهتمين بالتقنيات الفلاحية في القديم. أشاروا بالمقابل إلى اندثار تام لمغارس الكروم بتونس عقب الفتح الإسلامي نظرا للموانع الدينية التي تحرّم استهلاك الخمر لكن أثبتت بعض الكتابات الأخرى والأرقام الرسمية وجود مساحات من الكروم على ذمة الفلاحين الأهالي سنة 1881 واقتصر الأمر في الواقع وكما أشرنا على استهلاك العنب (فاكهة) أو المجفّف.

2- التوسع الجغرافي ومجاعة نسق التوسع الاستيطاني

حافظت غراسات الكروم على مكانتها صلب الفلاحة الإستعمارية وعرفت توسّعا مجاليّا معتبرا وتجاوزت المناطق الجغرافية الأولى التي اقتصرت على أرياف المراقبات الشمالية بتونس. فقد تحدثت الإحصائيات عن وجود 5159.66 هكتار من الكروم الأوروبية أي على ملك المستوطنين الأوروبيين تتوزع كما يلي:

¹³ - Faucon (Narcisse), *La Tunisie...* Op.cit. p.18.

¹⁴ - Beaulieu Paul (Leroy), *L'Algérie...* Op.cit. p 344.

ناحي كشيدة

مساحة مزارع الكروم الأوروبية بتونس سنة 1892¹⁵

المراقبة المدنية	المساحة بالهكتار
بتونس	3172.76
بسوسة	432.16
بقرمبالية	521.73
بباجة	281
بسوق الأربعاء	268.4
ببنزرت	131.18
بصفاقس	286.74
بالقيروان	14.73
بالكاف	33.81
بجربة	2.32
المجموع	5159.66

تنضاف إلى هذه المساحات 14.83 هكتارا موجودة بالتراب العسكري* وهو ما يؤكد توسع هذه الغراسات نحو أعماق البلاد ودواخلها وإقبال المستوطنين على ممارسة هذا القطاع، فالإ جانب تدعّم هذه الغراسات بأخرى جديدة بالمناطق الأولى (الشمالية) أقدم المستوطنون الأوروبيون وخصوصا الفرنسيين منهم على تعاطي هذا النشاط بمناطق أخرى فُتحت أريافها للاستيطان في فترة متأخرة نسبيا كما حصل بأرياف المراقبة المدنية بصفاقس التي مُنحت للمستوطنين بموجب أمر 8 فيفري 1892، أين بادر المستوطنان مولار أدريان وجول أفوكاتو¹⁶ بغراسة مائة

¹⁵ -Turquan (Victor) et autres, *La France en Tunisie...*, Op. Cit. p261.

* توجد هذه المساحات بكل من التراب العسكري بتونس و قابس.

أنظر : Ibid. p.261

¹⁶ - أ. و. ش. خ. س تونس 1885-1916 بك رقم: 250. م. 1 و 132 ومايليها: قائمة أسمية للمستوطنين

المالكين للكروم بتونس سنة 1901.

هكتار كروما وهو ما يعتبر نجاحا للعملية الإستيطانية بهذه المناطق التي تتحكم فيها العوامل المناخية وتتميّز بتذبذب التساقطات. نسج كذلك آخرون على هذا المنوال ليأخذ الحضور الأوربي بهذه الجهة أبعادا استيطانية تمثلت في توسع ممتلكات المستوطنين بعدد الجهات كما تعايشت هذه النوعية من الزراعات مع زراعة الحبوب في مناطق الشمال الغربي.

لم تسلم كذلك من هذه الهجمة التوسعية الاستعمارية الأراضي الموجودة في المناطق شبه الجافة أين تحسّل الاستيطان على 3500 هكتار سنة 1900 من الأراضي الفلاحية الواقعة شمال مدينة قابس بالجنوب التونسي¹⁷. كما تذكر المصادر الاستعمارية¹⁸ استقرار (09) مستوطنين بأقصى الجنوب الشرقي التونسي اختصّوا في غراسة الكروم إلى جانب الزياتين بجزيرة جربة من بينهم 4 فرنسيين وبالمثل إيطاليين ومستوطن يوناني لهم 10 هكتارات كروم، وبالجوار أي بجرجيس¹⁹ بسط المستوطنون نفوذهم على 34 هكتارا غرست كروما لفائدة ثمانية مستوطنين منهم (06) فرنسيين وإيطاليين، في حين كان الحضور الاستيطاني بجهة الحوض المنجمي بالمراقبة المدنية بقفصة- أين تغلب الصناعات الاستخراجية- محدودا ومقتصرًا على خمسة (05) مستوطنين فرنسيين لا تتعدّى مساحة غراساتهم من الكروم 6 هكتارات فكثافة الوجود الأمني بالجهة ارتبطت أساسا بالنشاط المنجمي (يد عاملة إيطالية وفرنسية ومالطية ومغربية) إلى جانب إداري شركة فسفاط قفصة.

¹⁷ - Ministère des Affaires Etrangères (M. A. E), *Rapport au Président de La République sur la situation de la Tunisie en 1899*, Imprimerie Nationale, Paris, 1900, p. 50.

¹⁸ - De Lanessan (J.L), *La Tunisie*. Librairie Félix Alcan Paris. 1917, p 146

¹⁹ - Ibid, p146

ناحي كشيدة

استمرت غراسات الكروم في التوسع بكامل البلاد لتبلغ المساحة الإجمالية 8269.14 هكتار سنة 1897²⁰ منها 6602 هكتار على ملك المستوطنين أي ما يمثل 79.8% وهو ما يدعم الفكرة القائلة بأن هذا القطاع كان استعماريا بامتياز. كما ظلّت الكروم الأوروبية بتونس بعيدة عن تهديد الفلوكسيرا عكس نظيرتها بالجزائر فبالرغم من ظهور هذا المرض ببعض الضيعات بهضاب مجردة²¹ إلا أن التأثير بقي محدودا وتم التفطن إليه بسرعة ويعود "الفضل" في ذلك إلى فاعلية قانون 29 جانفي 1892²² الذي أجبر نقابة مزارعي الكروم بتونس (Syndicat des Viticulteurs de Tunisie) على القيام بزيارات تفقدية للمزارع وضيعات المستوطنين²³ في نفس الوقت الذي تضررت فيه الكروم بأرياف مدينة عنابة بالجزائر من هذا المرض.

سمحت هذه السياسة الوقائية بتوسع الغراسات أواخر القرن التاسع عشر (1899) لتبلغ 8 آلاف هكتار تحت تصرف المستوطنين. وقّرت هذه المساحات 200 ألف هيكتولتر من الخمر²⁴ والتي صُدّرت كميات هامة منها باتجاه المتروبول. قفزت هذه المساهمات بسرعة لتبلغ 10 آلاف هكتار سنة 1903²⁵ وقد ترافق هذا التحسن بتطور في التشريعات الاستعمارية الموضوعة على مقاس المستوطنين، إضافة للتوسع الذي عرفته شبكة الطرقات والسكك الحديدية والتي سهّلت التسرب نحو الأرياف ودواخل البلاد ويسّرت عمليات نقل المنتوجات

²⁰ -M. A. E, *Rapport au président de la république sur la situation en Tunisie 1897...* Op. Cit. 1898, p 16.

²¹ -M.A.E, *Rapport au président de la république sur la situation en Tunisie en 1900...*, op cit, p30.

²² -M.A.E, *Rapport au président de la république sur la situation en Tunisie en 1899...*, op cit, p 16.

²³ - Ibid. p.16.

²⁴ -Protectorat français .Direction de l'Agriculture du commerce et de la colonisation, *Notice sur la Tunisie*. Imprimerie Générale. Tunis. 1899, p28.

²⁵ -Du PARC Wastelier (Robert), *Etude sur la colonisation en Tunisie*. Imprimerie L. Danel. Lille, op. cit. p 9

زراعة الكروم في تونس: قطاع استعماري بامتياز

1920-1881

نحو الموائئ. أسهمت كل هذه العوامل في مضاعفة أعداد المهتمين بهذا القطاع الذي لم يعد حكرا على كبار المستوطنين فقط، بل أصبحت غراسة الكروم متاحة للمستوطنين متوسطي الإمكانات وحتى الصغار منهم. فبرزت الضيعات التي تراوحت مساحاتها بين 10 و50 هكتار وتعتبر هذه التركيبة الطارئة على المشهد الزراعي نجاحا لمطالب دعاة الاستيطان الفرنسي بتونس الذين نادوا بضرورة فتح المجال التونسي أمام صغار المستوطنين وتشجيعهم على الاستيطان بالأرياف .

تبيّن للفرنسيين بعد هذه السنوات الحظوظ الوافرة التي تقدمها أرياف تونس لغراسة الكروم وما التوسع الهام للمساحات المغروسة أو المخصصة لهذه النوعية من الأنشطة إلا دليل على ذلك بالرغم من تعدد الأنشطة الفلاحية المنافسة للكروم وأهمية بعضها تجاريا. فقد خصص المستوطنون الأوروبيون مساحات هامة من أراضيهم لغراسة الكروم باعتماد مشاتل ونوعيات فرنسية مثل: المورفادر والمورستال وغيرها. برزت نتيجة لهذه الجهود عديد المناطق قبيل الحرب الأولى كمناطق مختصة في هذه النوعية من الغراسة وذلك إلى جانب المناطق التي انطلقت منها سنة 1881 والمقصود بذلك المناطق الشمالية الخصبة وقد توزعت أهم هذه المساحات سنة 1911 كالآتي

أهم مناطق الكروم سنة 1911²⁶

المراقبة المدنية	المساحة بالهكتار
بتونس	9198
بقرمبالية	2335.36
بسوسة	937
ببنزرت	738
بمجاز الباب	416

²⁶ -Boilley (Lucien), *La Tunisie Agricole*. Imprimerie Millot Frères. Besançon. 1913, op. cit. p153

ناجي كشيدة

308	بسوق الأربعاء
243	بصفاقس

توسّع هذه المساحات يؤكد قيمة هذا الاختصاص الفلاحي الاستعماري الذي جذب أعدادا هامة من المستوطنين، وليس من الغرابة أن يكون أشهر المستوطنين الفرنسيين بتونس من مزارعي الكروم، أمثال جون ترأس والكونت دي ورّان وبول بوتان وموريس كريتي وحتى بعض المنظرّين والكتّاب الاستعماريّين كانوا من هذا الصنف من المستوطنين، أمثال بول لرؤا بوليه الذي أمّلك مساحات هامة بالشويفي قرب منوبة وفكتور دي كارنيار²⁷ وجول سوران²⁸ وغيرهما.

تواصلت عمليات انشاء مزارع الكروم في تونس وقد اقترنت بهيمنة المستوطنين الفرنسيين على هذا القطاع إذ غطّت المساحات المُخصّصة لهذه النوعية من الغراسات أكثر من 9 آلاف هكتار سنة 1913²⁹ أي قبل الحرب العالمية الأولى، يليهم المستوطنون الايطاليّون بـ6 آلاف هكتار. استمرت هذه الوضعية من التطوّر الى حدود 1917 ليبسطوا نفوذهم على ما يفوق 18 ألف هكتار من الكروم³⁰.

²⁷ - فكتور دي كارنيار: من مواليد 26 فيفري 1849 بشمال فرنسا يعتبر من غلاة المستوطنين و أبرزهم بتونس ولُقّب بسيدّ سليمان (Seigneur de Soliman) وهي منطقة فلاحية خصبة. يعتبر من أبرز الأعضاء البارزين بالندوة الاستشارية و غرفة الفلاحة وكّرس جهوده للدفاع عن المستوطنين و مصالحهم من خلال صحفه (La Tunisie Française) و (Le Colon) والتي هاجمت الاداريين الفرنسيين و كذلك الادارة الاستعمارية .

²⁸ - جول سوران: من مواليد غرة أكتوبر 1863 بإقليم الفار (Var) جنوب فرنسا. عمل مدرّسا لمادة التاريخ قبل أن يصبح من كبار المستوطنين بعديد المناطق بتونس وكذلك مؤسس لشركة الضيعات الفرنسية التي تكفّلت بتركيز عديد العائلات بتونس و الجزائر كذلك و له عدة مؤلفات للتشجيع على الهجرة و الاستيطان الفرنسي بتونس.

²⁹ - Monchicourt (Charles), *La Tunisie après la guerre: Problèmes politiques*. Publication du Comité de l'Afrique française. Paris 1920-1921, p 14

³⁰ - Ibid

3- قطاع الكروم والمساهمة الفعالة في التصدير

وقّرت ضيعات المستوطنين كمّيّات قُدّرت بـ 180 ألف هيكتولتر من الخمر
أوائل القرن العشرين³¹ خصّصت منها 151 ألف هيكتولتر للتصدير وكانت فرنسا
الوجهة الأولى للخمر التونسية التي كانت ذات جودة عالية وخاصة الخمر
الحمراء. ويمكن تفسير هذه "النجاحات" بملائمة الظروف والعوامل المناخية
بتونس لهذه الغراسة بالإضافة لأهمية التقنيات المستعملة سواء عند الغراسة أو
التخمير والحفظ داخل الأقبية التي انتشرت بعديد المناطق من البلاد. تجدر
الإشارة كذلك إلى تبلور الغاية "التصديرية" والنفعية عند سلطات الاحتلال نظرا
لوفرة المنتج ولحاجة السوق الفرنسية والأوروبية، فقد كان القائمون على رسم
السياسات التوسعية الفرنسية على دراية بما يمكن ربحه من مثل هذه الزراعات
التي أقحمت تونس في مجال المنافسة التجارية والتي أسهمت في تنمية مداخيل
الخزينة.

طرأت عديد التغيرات منذ اندلاع الحرب الكبرى على القطاع الفلاحي عامة
وعلى غراسات الكروم وتصدير الخمر التونسية خصوصا، إذ أصيبت الحياة
الاقتصادية بالشلل³² وحصل اضطراب كبير على مستوى الحركة التجارية
المرتبطة أساسا بالمتروبول. عملت السلطات الاستعمارية خلال هذه الظرفية على
تأمين عمليات تموين المتروبول بتوفير المواد الغذائية الأساسية، كما كان لزاما على
الإدارة الاستعمارية الحفاظ على نسق الغراسة والإنتاج بتونس كباقي المجال
الاستعماري بالرغم من عمليات التجنيد التي شملت المواطنين العمّال الفلاحين
(أهالي وفرنسيين) وحتى الإداريين خاصة وأن قيمة الإيرادات التي وفرها هذا

³¹ - M. A. E, *Rapport au président de la république sur la situation en Tunisie 1897...* Op. Cit. 1898, p 16.

³² -Schilling, Barrioulet et Flamant, *Le Commerce et le travail en Tunisie* . Imprimerie Victor Berthod. Paris 1931. p 90.

ناجي كشيدة

القطاع تعتبر هامة زمن السلم فقد بلغت أكثر من مليون ومائتي ألف فرنك سنة 1897³³. تندرج هذه الجهود ضمن الظرفية الاستثنائية للحرب التي اقتضت تسخير كل المجهودات لفائدة العمل الحربي وقد ضمنت فرنسا تواصل توافد المنتوجات من المستعمرة ومن باقي المجال الكولونيالي الفرنسي ولم تحد عمليات تصدير الخمر عن هذه القاعدة. أمنت السلطات الاستعمارية هذه العمليات طوال فترة الحرب وذلك ما سنحاول إثباته من خلال الأرقام الواردة بالجدول الموالي المتعلق بنسق تصدير الخمر التونسية نحو المتروبول.

³⁴ كميات الخمر المصدرة لفرنسا بين 1913-1918

السنة	الكمية بالهيكولتر
1913	300 ألف
1914	200 ألف
1915	125 ألف
1916	450 ألف
1917	432 ألف
1918	608.106 ألف

يقدم لنا الجدول وبكل وضوح حرص الإدارة الإستعمارية على تأمين الصادرات من الخمر في ظرفية استثنائية، حيث سعت سلطات الاحتلال الفرنسي إلى تخصيص كميات هامة من الخمر لصالح أسواق المتروبول. فقد بلغت هذه الكميات أقصاها أواخر الحرب، بفضل العوامل المناخية الملائمة وخصوصا كثرة الأمطار وقد تحكمت هذه العوامل مباشرة في الكميات المنتجة.

³³- Ghauthronet (Emile), *L'Afrique de Nord: Algérie et Tunisie, Commerce-Agriculture- Industrie*. Giralt imprimeur du Gouvernement Général. Alger 1898, p 17.

³⁴-Bernard(Augustin), *L'Afrique du Nord pendant la guerre*. P.U.F Paris. 1926

كما يكشف حجم هذه الكميات عن أهمية العمل الذي أنجز بتونس من خلال تأمين عمليات القطف التي أمنتها اليد العاملة السجّنية والتسخير الذي طال الأهالي وبعض الأوروبيين إلى جانب تأمين النقل البحري الذي كان صعبا خلال الحرب الأولى وتهديد الغواصات والبوارج الحربية الألمانية للبواخر التجارية في المتوسط.

سجّلت صادرات تونس من الخمر تطوّرا ملحوظا سنة 1919³⁵ مقارنة بالسنوات السابقة وقد عكست القيمة المالية الإضافية التي قُدّرت بأكثر من خمسة ملايين فرنك (5.160.625) هذا التحسّن. كما سجّلت عديد القطاعات الفلاحية نفس هذا الانتعاش وذلك بفضل ملائمة العوامل الفلاحية وأهمها تهاطل كميات هامة من الأمطار وغياب شبه تام للأمراض الخطيرة التي سبق وأن نسفت جهود المستوطنين، هذا إلى جانب عودة اليد العاملة التي وقع تسخيرها أثناء الحرب لفائدة المجهود العسكري.

لم تحجب هذه النجاحات وجود عديد الاشكاليات التي تبلورت بمجرد البحث عن التسويق، اذ عانى المستوطنون الأوروبيون بتونس من مشكل التصدير وتسويق منتوجاتهم بالأسواق الفرنسية والأوربية مما دفعهم إلى الاكتفاء بالتسويق داخل المستعمرة³⁶ وذلك إلى حدود نهاية العشرية الأولى من الإحتلال ما سبّب مشكل الفائض. تدخّل اتحاد النقابات الفلاحية بتونس بالاتفاق مع شركة نقل بحري ستتولّى نقل وإيصال الخمر التونسية إلى المتروبول³⁷ وقد لاقت هذه المنتوجات الرواج والقبول بأسواق فرنسا، في إطار علاقة المركز الاستعماري بالمستعمرات. كما حافظت فرنسا على أولويتها كوجهة لهذه الصادرات الفلاحية

³⁵ - M. A. E, *Rapport au président de la république sur la situation en Tunisie 1919*...Op. Cit., p 132.

³⁶ - Bulletin du syndicat..., OP. Cit. , n° 4.10 février 1892.

³⁷ - Ibid.

ناجي كشيدة

وامتصاص المنتوجات التونسية من الخمر بالرغم من حالة الامتناع التي أبداهها فلاّحو المتروبول الذين تعرّضوا لمنافسة من مستوطني تونس وكذلك الجزائر. استفاد كذلك المستوطنون المستقرّون بتونس من الامتيازات التي أقرها القانون الديواني لشهر جويلية 1890 وقد تواصلت هذه الوضعية بالرغم من الوضعية الصعبة والمنافسة القوية التي فرضتها صادرات الجزائر من الخمر المستفيدة منذ 1851 من الإعفاءات الجمركية حال وصولها موانئ المتروبول. كما تعقدت هذه الوضعية عادة تعافي كروم الجنوب الفرنسي واسترجاعها لنسق الإنتاج العادي.

تدخلت السلطات الاستعمارية بالمتروبول وتونس لإيجاد أسواق جديدة تسمح باستيعاب الكميات المنتجة من الخمر التونسية ولفك هذه العزلة التي أصبح يعانيها هذا القطاع كانت الأسواق الإنفليزية والبريطانية عامة هدفا للجهود الديبلوماسية للقناصل الفرنسيين لفتح هذه الأسواق. فقد لعب قنصل فرنسا بمدينة نيوكاسل (Newcastle) دورًا مهمًا لتسويق هذه الخمر وللبحث عن المشترين من كبار التجار الإنفليز³⁸، كذلك كان الشأن لقناصل وممثلي فرنسا بكل من ليفربول ولندن وفلاسكو عاصمة إسكتلندا³⁹ ومدينة كارديف الأيرلندية. ويبدو أن التنسيق بين الإقامة العامة والقناصل الفرنسيين، كان منصبًا على السوق الإنفليزية المعروفة باستهلاكها الكبير للخمر وخاصة الحمراء التي كانت المنتج الأول بتونس

لم يتوقف هذا البحث عند الأسواق الأوروبية أو "التقليدية" بل تجاوزها ليصل إلى بلدان أمريكا اللاتينية من خلال البحث عن أسواق وحرفاء بكل من

³⁸ - أ. و. ش. خ. س تونس 1885-1916، بك 267، 1: مراسلة القنصل العام الفرنسي بمدينة نيوكاسل

لوزير خارجيته بتاريخ 7 أوت 1907

³⁹ - أ. و. ش. خ. ن. م. مراسلة قنصل فرنسا بمدينة فلاسكو (إسكتلندا) للمقيم العام بتونس بتاريخ 1907.

الأرجنتين والمكسيك وقد اعتمدت السلطات الاستعمارية على جهود القنصلين الفرنسيين بكل من بيونس آيرس ومكسيكو⁴⁰. كما راسل المقيم العام القناصل الفرنسيين بكل من مدينتي نيواورليانز⁴¹ وشيكاغو⁴² بالولايات المتحدة الأمريكية اللذان تفاعلا إيجابيًا مع هذه المجهودات.

خاتمة

إجمالاً مثل قطاع الكروم النشاط الفلاحي الأبرز للمستوطنين الأوروبيين بتونس كما بالجزائر كذلك يمكن أيضاً اعتباره الإختصاص الفلاحي الاستيطاني الأول الذي اقترن بالهيمنة الفرنسية وارتبطت ممارسته بالوجود الاستعماري. فقد استغل المستوطنون انهيار غراسات الكروم بالمتروبول إضافة لملائمة المناخ ووفرة الأراضي واليد العاملة لتحقيق إنجازات فشلوا في تحقيقها بالوطن الأم كما مثلت المستعمرة المجال الحيوي الذي أستغله المستوطنون كبديل عن المتروبول في هذا المجال على الأقل. كما عملت الإدارة الاستعمارية من جهة أخرى على استمالة المزيد المستوطنين الفرنسيين نحو تونس كمستعمرة وخصوصاً لهذا القطاع "الواعد" من خلال إقرار العديد من التشجيعات الهامة والمتواصلة (تسهيلات في اقتناء الأراضي وكذلك عند الحصول على القروض وتوفير المواد والأسمدة الضرورية إضافة إلى تركيز تشريع عقاري وقانوني هائل خدم المنظومة الإستعمارية) وقد هدفت من وراء ذلك إلى ضمان تفوق العنصر الفرنسي وخدمة للمصالح العليا للمتروبول.

⁴⁰ - أ. و. ش.خ. س تونس 1885-1916. بك 267. م1: مراسلة القنصل العام لفرنسا بمدينة مكسيكو للمقيم العام بتونس ستيفان بيشون بتاريخ 10 ديسمبر 1907.

⁴¹ - أ. و. ش.خ. ن. م : مراسلة ممثل القنصلية الفرنسية نيواورليانز للإقامة العامة بتونس بتاريخ 28 أوت 1907.

⁴² - أ. و. ش.خ. ن. م: مراسلة متصرف القنصلية الفرنسية بشيكاغو للإقامة العامة بتونس بتاريخ 20 أوت 1907.

ناجي كشيدة

بقيت عملية تصدير الخمر التونسية مرتبطة بالوضع السياسية والإدارية لتونس إذ تعتبر هذه المنتجات أجنبية على عكس الخمر وباقي المنتجات الفلاحية الجزائرية التي تعتبر منتوجا فرنسيا.